أثر البلاغة العربيّة في الدّرس اللّساني التّداولي - نظرية الحجاج أنموذجا -

عبد الحميد بن
سعاد بن قناب: طالبة دكتوراه
إشراف: د. طانية حطاب: أستاذة محاضرة "أ"
مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين.جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم-.

الملخص:

ما من شك أنّ الدّراسات البلاغيّة تكتسي أهمية بالغة وبخاصة نظرية الحجاج، وهذه الأهمية تظهر جلياً في الدّراسات اللّسانية التّداولية الّتي تدرس اللّغة أثناء استعمالها، فهي علم تواصلي ومجالها رحب، فهي تسعى لاستخلاص العمليات الّتي تمكن الكلام من التجدّر في إطاره الّذي يشكل الثّلاثية (المرسل – المتلقي – الوظيفة التّبليغية)، وتتصل التّداولية بالحجاج الّذي يعدّ فعاليّة لسانيّة وعمليّة اتصاليّة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربيّة، اللّسانيات، التّداولية، الحجاج.

Abstract :

There is no doubt that studies of rhetoric are of great importance, especially argumentation theory, This importance is evident in pragmatic language studies that teach the language while using it, It is a science of communication and his domain is wide, He seeks to extract the processes allowing to configure the speech in its frame, which constitutes the triple (transmitter – recipient – function of report), Argumentation is a linguistic and communicative efficiency in which we try to answer to some questions:

Key Words : Arabic rhetoric, Linguistic, pragmatic, Argumentation –

مقدمة:

لقد مرّت البلاغة بمراحل مختلفة وأنّ لكلّ مرحلة بلاغتها، فَجَارَتْ مَجَاري متفرّقة تعكس تطوّرها سواءً أكان ذلك من مرحلة التّأسيس، أو مرحلة النّهضة، أو مَا يَلِيهَا من مراحل ما بعدَ النّهضة، كلّها تفيض بِزَخَمِ ما أفْرَزَتْهُ العقول من آراء واجتهادات لأصحابها،

وطرق تفكير لكلّ أمّة، "فإنّه من المؤكّد أنّه لا وجود لبلاغة بمَعْزَلٍ عن صورة معيّنة للإنسان والتّاريخ ولنوع المسافات بين الكلمات والأشياء، بين المنزاح من الكلام ومعقوله، ومن ثمّة ضرورة إعادة مساءلة هذه العلاقات، بل إنّ إحياء البلاغة رهين بِامْحَاءِ نموذج تفكير وحلول آخر محلّه..."[1]، وهذا يؤكدّ بطبيعة الحال أنّ كلّ إنسان يشرف على صناعة مراحله العلميّة والثّقافية عبر تاريخه الطّويل.

إذن فالبلاغة هي واحدة من بين العلوم الّتي ارتبطت في كلّ مرحلة بما صنعه الإنسان وخلّفه على أساس أنّها تعكس صورته في تلك الحقبة، إلّا أنّ ضرورة التّطور تواكبها دائمًا حركة التّجديد والسّير نحو أفاقٍ بعيدة تجعل من كلّ مرحلة تفكير هي رهينة الأخرى، وهكذا مع مرور الزّمن تتّسع الفجوة بين كل كلّ فترة سبقت وأخرى تأخرّت حتّى يطرأ عليها التّغيير، نلتمسه في مواضع كثيرة في حدود كلّ تفكير، وبالتّالي يظهر لنا نموذج تفكير جديد بدل الّذي سبقه، وهكذا إذن حال البلاغة والعلوم لدى سائر الشّعوب.

ما تحمله البلاغة تحمله اللّغة من أجل الحفاظ على خاصيّة التّواصل والتّفاعل بين بني البشر، وفي ذلك يقول عبد الهادي بن ظافر الشّهري: "وللّغة وظائف كثيرة وقد تعدّدت ...بتعدّد زوايا النّظر ورغم أهمية كلّ وظيفة، إلّا أنّ اللّغة من المنظور التّداولي وظيفتين رئيسيتين ترتبطان بمقاصد الإنسان الذي يستعملها وبوضعه الاجتماعي وأهدافه، فالنّاس عندما يتحدّثون لا يفعلون ذلك لمجرّد تحريك أعضاء النّطق، ولكن ليؤدّوا من خلال كلامهم هاتين الوظيفتين وهما الوظيفة التّعاملية، والوظيفة التّفاعلية"[2]، إذن وعلى أساسهما تنبني قاعدة البحث التّداولي وخاصة الوظيفة الثّانية (التّفاعليّة) فهي الّتي يحقّق بها النّاس علاقاتهم الاجتماعية وغاياتها المرجوّة من ثمرة ذلك التّفاعل والاحتكاك فيما بينهم في إطار سياق عام يهيئ الوضع لاختيار الآليات المناسبة الّتي نجني من ورائها تحصيل عمليّة الفهم والإفهام بين طرفي الخطاب (المتكلم والمتلقي).

كما نرى من زاوية أخرى أنّ البلاغة ذاتها تسعى إلى تحقيق التّأثير في الآخر وإقناعه من خلال الكشف عن مقاصد صاحبها (المتكلّم)، وهذا يعدّ من صميم البحث التّداولي، ولذلك نعتبر البلاغة واللّغة قرينتان تشكلان الجوانب الأساسيّة له، "وبهذا نفهم ما يقوله اللّغوي الألماني الكبير **لُوسْبَرَجْ (Lausberg)** من أنّ البلاغة تشير إلى اللّغة، وهي الوّسيلة القارّة الّتي يعبر عنها الكلام، فاللّغة بدون كلام ميّتة، والكلام بدون لغة لا إنساني، إذن إنّ اللّغة والفن والحياة الفرديّة والاجتماعيّة تقدّم نموذجاً واضحاً من التّعالق الجدلي بين اللّغة والكلام"[3].

وعليه فالتّداوليّة باعتبارها علم تواصلي جديد يعالج كثير من ظواهر اللّغة ويفسرها، محاولاً الإسهام في حلّ مشاكل التّواصل الّتي تقف عائقاً بين الباث والمتلقي، لذلك لا تزال التّداوليّة كبحث في قمّة ازدهاره يَلْتَفّ حوله الباحثون سعيًّا وراء اكتشاف ماذا يمكن أن نعني من وراء الظّروف المحيطة بنا لإنتاج الخطابات؟ وفيم تتمثّل أهميّة اللّسانيات التّداوليّة بالنّسبة للمعالجة اللّغوية العامّة؟. ولذلك أضحت التّداوليّة مجالاً غزيراً ومهمًّا في حقل اللّسانيات كونه منهجاً حيًّا يحيط بجميع جوانب الخِطاب.

تعدّدت تّعاريفها بشاسعة حقولها المعرفيّة، ولا يمكن حصرها في مفهوم واحد، لأنّها ليست درساً منكفئاً على نفسه، فيعرّفها كلّ من **آن ماري (Anne Marie Diller)**، و**فرانسوا ديكَانَاتي (François Récanati)** التّداوليّة هي: "دراسة استعمال اللّغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابيّة"[4]، ويعرّفها **فرانسيس جاك (François Jaques)** بقوله: "تتطرّق التّداوليّة إلى اللّغة، كظاهرة خطابيّة، وتواصليّة، واجتماعية معاً "[5]؛ وهذا يعني بالضّرورة أنّ التّداوليّة في أساسها تركّز على اللّغة بالدّرجة الأولى، وما ينجم عنها أثناء استعمالها وممارستها على كافة مستويات الخطاب، فهي تسعى جاهدة للإجابة عن أسئلة مهمّة تتمثل فيما يلي:" ماذا نصنع حين نتكلّم؟ فمن يَتَكَلَّمُ إذن؟ وإلى من يتكلّم؟ ومن يتكلّم وع من؟من يتكلّم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعمل حتّى يرتفع الإبهام عن جملة؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر، غير ما كنّا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إل المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللّغة ..."[6]، لنجد في آخر المطاف هذه الأسئلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً (بالمرسل والمرسل إليه) بصفتهما يمثلان قُطْبَين ترتكز عليهما العمليّة التّواصليّة الّتي نسعى إلى التّأكيد عليها من خلال البحث التّداولي.

فالمرسل يسعى جاهداً في البحث عن أفضل طريقة لينتج بها خطابًا يؤثر في المرسل إليه، فكذلك المرسل إليه يسعى هو الآخر جاهدًا في البحث عن أفضل كيفيّة وطريقة توصله إلى مقاصد المتكلّم، ولا يتأتّى هذا في ظروفٍ خارجة عن السّياق، فيحذو بالضرورة عنصرًا أساسيًّا من عناصر البحث التّداولي من أساسه.

ونظرًا لشاسعة تعاريفها الّتي لا تكاد تَعْدُّ ولا تُحصَى، نصادف الباحث **باديس لهويمل** يقدم لنا تعريفًا بسيطًا وشاملاً لمهامها فحسبه التّداوليّة هي: "دراسة اللّغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التّخاطب، تقوم على مراعاة كلّ ما يحيط بعمليّة التّخاطب للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب، بحسب قصد صاحبه،وتبحث في الشّروط اللّازمة لضمان نجاعة الخطاب وملائمته للموقف التّواصلي الّذي يوجد فيه المتلّفظ بالخطاب والسّامع له"، وه[7]كذا نرى أنّ التّداوليّة تركّز على مصطلحات هامّة أهمّها اللّغة، الظّروف

والسّياق، المعنى والقصد، متلفظ (متكلّم) وسامع (متلقي) فهذه هي جلّ المصطلحات الأساسيّة الّتي يقوم عليها الكيان التّداولي.

أمّا فيما يخصّ الجانب المفاهيمي الإجرائي الّذي تقوم عليه بصفتها علم تواصلي يحتاج إلى ذلك، يقول الباحث نفسه: "يكاد يتفق الباحثون على أنّ أهمّها أربعة مفاهيم: أفعال الكلام Les Actes de langages، ومتضمنات القول Les Implicites، والاستلزام الحواري L'implication conversationnelle، والإشاريات Deicies، هذا بالإضافة لجوانب وآليات أخرى تعدّ من صميم البحث التّداولي، مثل نظرية الملائمة Théorie pertinence، والقصديّة intentionalistic، والسّياق Contexte، والحجاج L'Argumentation"[8]، لذلك سنعرض منها:

I- نظرية أفعال الكلام:

يقول محمد صحراوي حول هذا المفهوم اللّساني التّداولي الجديد معرّفًا إياه بقوله: "الفعل الكلامي يعني: التّصرّف (أو العمل) الاجتماعي أو المؤسساتي الّذي ينجزه الإنسان بالكلام، ومن ثمّ فـ "الفعل الكلامي يراد به الإنجاز الّذي يؤدّيه المتكلم بمجرّد تلفظه بملفوظات معينّة، ومن أمثلته الأمر، والنّهي، والوعد،والسّؤال، والتّعيين، والإقالة، والتعزيّة والتهنئة ...فهذه كلها أفعال كلاميّة"[9]. وهذا يعني أنّها أفعال لا تتحقّق إلّا بحضور المتكلّم الّذي يسعى بدوره إلى تحقيق فعاليّة اجتماعيّة، تحمل مقاصد معيّنة يهدف إليها المتكلّم المرسل، أثناء تلفّظه، والّتي يجتهد المتلقي دومًا هو الآخر في فهمها، كذلك نرى أنّ الفعل الكلامي له الفعاليّة التّامة في تحريك المجتمع نحو فهم سلوكاته وتيسرها وتغييرها نحو الأحسن.

تقوم الأفعال الكلاميّة في جوهرها حين التّلفظ على مفهوم القوّة الإنجازيّة، أي أنّ كلّ فعل كلامي الصّادر من طرف متكلّم معين، يهدف إلى إنجاز غرض معيّن يُغَيّرُ من حال المتلقي وذلك بالتّأثير عليه من خلال أطور الأفعال المُدْرَجة: إلى فعل قولي، فعل إنجازي، فعل تأثيري، واستنادًا إلى مفهوم القوّة الإنجازية ميّز **أوستين (Austine)** خمسة أنواع بعدما عمّق الفهم بها في كتابه "How to do things with words" وهي[10]:

1- الأفعال الحكميّة (الإقرارية) Verdictifs : مثل حكم، وعد، وصف.

2- الأفعال التّمرّسية Exersitifs: إصدار قرار لصالح أو ضدّ، أمر، قاد، طلب.

3- أفعال التّكليف (الوعديّة) Comessifs: تلزم المتكلّف وعد، تمني، التزام بعقد، أقسم.

4- الأفعال العرضيّة (التّعبيريّة) Expositifs: عرض مفاهيم منفصلة، (أكد، أنكر، أجاب، وهب).

5- أفعال السّلوكيات (الإخباريات)Comportementaux: ردود أفعال، تعبيرات تجاه السّلوك، اعتذر، هنّأَ، حَيَّى، رحّبَ.. فهذه هي مجموع الأصناف الّتي قدمها أوستين للأفعال الكلاميّة، حيث إنّها تحمل معنى التّواصل بين المتخاطبين، والتّفاعل فيما بينهم، كون هذه الأفعال إجرائية بعدما يتلّفظ بها؛ أي أنّ القاعدة الأساسيّة الّتي يقوم عليها التّداول وهي أن يكون "القول موصولاً بالفعل".

بينما نجد تلميذه **سيرل (Searle)** يدين له بالفضل الكبير، حيث أفاض من نبع كان قد ارتوى أستاذه منه سابقًا، فانطلق من فكرة جوهريّة قام عليها الدّرس التّداولي برمّته (أفعال الكلام)، فقد كرّس جهوده لإعادة النّظر فيها مُبْدِيًا رأيه بخلاف لأستاذه بعض الشّيء ، وذلك بإعادة اقتراحه لتصنيف آخر، يشترك تارة مع أستاذه ويختلف معه تارة أخرى، وينصّ ذلك التّصنيف على ما يلي[11]:

1- الأخبار: Assersifs (تبلغ خبرًا وهي تمثيل الواقع)وتسمّى أيضاً بالتّأكيدات، الأفعال الحكميّة.

2- الأوامر: Directifs تحمل المخاطب على فعل معيّن.

3- الإلتزاميّة: Commissifs (أفعال التّعهد) وهي أفعال التّكليف عند أوستين.

4- التّصريحات: Expressifs وهي الأفعال التّمرّسية عند أوستين، تعبّر عن حالة مع شرط صدقها.

5- الإنجازيات: Déclarations (الإدلاءات) تكون حين التّلفظ ذاته.

II- الاستلزام الحواري:

يعدّ الاستلزام الحواري من أهمّ القضايا الّتي تسهم في الإلمام بجوانب البحث التّداولي، وعنصرًا فعّالاً يُتيحُ فرصة تقريب كلّ من المتكلّم والمخاطب إلى بعضهما، فالحوارات القائمة بين أفراد المجتمع جاءت بالضّرورة تستدعي منا في كثير من الأحيان إلى إقامة نوع من الاستلزام يرافق حوارنا طيلة اجتماعنا ببعضنا البعض، يحمل طابع "الاستلزام" في ثناياه تركيزاً على فهم المقصود الصّادر من المتكلّم، ومع ذلك يبدو الأمر على هذه الحال شبيهاً بالزّئبق. لذلك يجب على المتلقي أن يكون على يقظة حين اجتماعه بالمتكلّم، لأنّ هذا الأخير قد نلتمسه يقول ما يقصد، وقد يقصد أكثر ممّا يقول، وقد يَقْصِدُ عكس ما يقول.

ظهرت فكرة الاستلزام الحواري عند **جرايس (Grice)** فيلسوف من فلاسفة أكسفورد المتخصصين في دراسة اللّغة الطّبيعيّة، وقد أشار محمود نحلة إلى طرح جوهري كان يشغل جرايس، وهو كيف يمكن أن يكون ممكنًا أن يقول المتكلّم شيئًا آخر؟ ثُم كيف يكون ممكنًا

أيضًا أن يسمع المخاطب شيئًا ويفهم شيئًا آخر؟. ولعلّ هذا الطرح قاد جرايس نفسه إلى إيجاد حلّ مناسب له، فيم يتلّخص في "مبدأ التّعاون" الّذي صَنَعَ منه رِباطًا وثيقًا يشدّ به الطّرفين معًا، وهو مبدأ حواري يشمل أربعة مبادئ[12]:

1- مبدأ الكم: Quantity: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب، من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

2- مبدأ الكيف: Quality: لا تقل ما تعتقد أنّه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

3- مبدأ المناسبة: Relevance: اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

4- مبدأ الطريقة: Manner: كن واضحاً ومحدداً، فتجنّب الغموض Obscurity، وتجنب اللّبس Umbiguity وأوجز ورتب كلامك.

فهذه هي المبادئ الّتي اقترحها جرايس أسهمت في رسم طريق جعلته يتّسم بغاية الصّراحة والوضوح بين المتكلّم والمتلقي هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى هتك لأحدٍ من هذه المبادئ يستدعي بالضّرورة استلزامًا حواريًّا يتّضح مقصده من خلال الحديث مع مراعاة الإخلاص لمبدأ التّعاون (عليها).

III- الإشاريات:

تعتبر هي الأخرى جانبًا مهمًّا في البحث التّداولي كونها تعمّق فكرة التّواصل ما بين المتكلّم ومتلقيه أثناء فعل التّلفظ، والّذي بدوره يكون هادفًا إلى تحقيق قصديّة معيّنة، تحظى فيها المؤشرات الزّمانية والمكانيّة بدورٍ فعّال، هي الأخرى في تحديد نوايا المتكلّم، ناهيك عن العامل الظرفي والسّياقي الّذي يعدّ العنصر الأساسي في جمع كل هذه المؤشرات الّتي تقوم عليها العمليّة التّداوليّة، ويمكن تعريف الإشاريات بـ: "عبارات عن علامات محيلة غير منفصلة عن فعل التّلفظ، وهو فعل يقتضي متلفظًا يتوجّه بخطابه إلى مخاطب ضمن إطار زماني ومكاني محدّد، لذلك لا يمكن إسناد دلالة ما إلى ملفوظ معيّن دون الوقوف عن الإشاريات من جهة، وعند سياق إنتاج الملفوظ من جهة أخرى"[13]، وهذا يؤكد بالفعل الغرض التّداولي، والدّور الفعّال الّذي تؤدّيه هذه الإشاريات في تحقيق فاعليّة التّواصل بين المتخاطبين.

أمّا فيما يخصّ أصناف الإشاريات وتقسيماتها، قد ركزّ الباحثون على أهمّها: إشاريات شخصيّة، وإشاريات زمانيّة، وإشاريات مكانيّة، فهذه الثّلاثة المرّكّز عليها مضيفين في أحيان أخرى إشاريات اجتماعيّة وإشاريات خطابيّة.

1- إشاريات شخصيّة: فعن هذا النّوع من الإشاريات نجد ضمائر الحاضر الّتي تمثل المتكلّم "أنا" أو مع غيره "نحن"، كما نجد ضمائر المخاطب سواءً كانت مفردة أو مثنى أو جمع تشارك هي الأخرى ضمائر المتكلّم في تجسيد العمل التّداولي بالإضافة إلى الاستناد إلى العامل الظّرفي والسّياقي الّذي يسهم في خلق جوّ يربط المتلقي بجمهوره المخاطب، كما أشرنا بطبيعة الحال إلى ذلك سابقًا.

2- الإشاريات الزّمانيّة: أمّا عن هذه الإشاريات، فما يمكن اعتبارها إلّا كلمات تدلّ على زمان، مثل اليوم، أمس، غدًا، أسبوع، شهر، سنة، بحيث يكون الزّمان الّذي يحدث فيه الفعل الكلامي (التّكلم)هو المركز الّذي يحمل الإشارة الزّمانيّة، وهذه الأخيرة تسهم بشكل كبير في إيصال الفكرة أو الرّسالة للمتلقي، إذن فأمرُ هذه المؤشرات لا يمكن أن يرد في الخطاب بطريقة جزافيّة بل تعدّ مفتاح من المفاتيح الّتي يلجأ إليها المتلقي في كشف الغطاء عن نوايا المتكلّم، كأن يتبادر إلى ذهن المتلقي، لماذا ركّز المتكلم على استخدام مؤشر زمني هذا بدلاً من هذا.

3- الإشارايات المكانيّة: نجد في مقابل الإشاريات الزّمانيّة، إشاريات أخرى مكانيّة يركّز عليها المتكلّم أثناء ملفوظه لأداء غرض معيّن، حيث نلتمس منها ما يستعمل للقريب، وكذلك للبعيد، إذن فكلّ المؤشرات المكانيّة مثل هنا، هناك، أمام، خلف، وغيرها، هي عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدّد إلّا بمعرفة موقع المتكلّم.

وما يمكن أن نقوله عن الإشاريات يكمن مفاده في هذا القول: "يتّضح أنّ الإشاريات تتوّخى التّعيين والتّحديد المتعلق بالأشخاص والأشياء والأحداث والأنشطة الّتي نتحدث عنها والّتي تحيل إليها في علاقتها بالسّياق الزّمكاني المتولّد عن فعل التّلفظ"[14].

وعن الإفرازات الّتي سنّها باحثوا البلاغة عبر أزمنة مختلفة تقول **أمينة الدّهري**: "إنّ اختلاف التّصورات الّتي أفرزتها تلك التّنظيرات على تباعد الزّمني وتباين منطلقاتها ومقاصدها، تمحورت حول الجانبين الإمتاعي والإقناعي للبلاغة، الإمتاع باعتباره إجراءات أسلوبية واستراتيجيات استهوائية، تخاطب في المقام الأوّل أحاسيس الجمهور، وتسعى إلى تحريك عواطفه، مستهدفة التّأثير الفاعل للدفع إلى تبني مواقف محددة للخطاب المتوّجه إليها، وبالتّالي قبول قضيّة عن حماسة لا عن روية، في مقابل الإقناع، وجوهره الأطروحة والأطروحة المضادة، إنّ التّوجه المنيف على مسار استدلالي منظم، المحتمل للمعقول والمقبول بين الرّأي المخالف"[15]. ويشير مفاد هذا القول إلى أن الآراء والتّنظيرات الّتي طرحت في مجال البلاغة رغم تباعدها الزّمني، وعدم اعتمادها نفس المنطلقات والتّنوّع

في مقاصدها تراوح ذلك كلّه في جانبين أساسين يتمثلان في الإمتاع والإقناع يدلوان بالبلاغة نحو أفق بعيد.

وعليه فالإمتاع كما يظهر لنا يقوم على إجراءات أسلوبيّة تستهوي أحاسيس الجمهور، تدفع به إلى أخذ مواقف، وتبني قضايا تنتج عن طريق الحماسة لا عن طريق الإمعان والتّريث، بينما يعدّ الإقناع هدف جوهري هو الآخر تسعى البلاغة إلى تحقيقه أيضًا، إذن فكيف يمكن للخطيب أن يتحدّث على سبيل المثال دونما أن يسعى في جوهره إلى إقناع المتلقي بما يعرضه عليه؟ وفق عمليّة منهجيّة دقيقة تقوم على عرض الأطروحة، والأطروحة المضادّة إتباعاً لمنهج استدلالي منّظم يحتمل القبول والتّسليم من طرف المتلقي، كما يوضّح لهذا الأخير حق المعارضة لما يطرح عليه.

وإثر حديثنا عن بلاغة الإقناع يتّضح لنا مدى اهتمام البلاغة المعاصرة أو بالأحرى "البلاغة الجديدة" كما يراها البعض تتلخص في الحجاج(L'argumentation)، الّذي يعدّ مبحثًا من مباحث التّداوليّة كما أشرنا إليه سابقاً، فتعدّ بحوث **بيرلمان – تيتكا (Olbrehts tyticat – perlaman)** من اللّبنات الأولى الّتي عملت بإخلاص على بلورة الدّرس البلاغي المعاصر، وقد بدى ذلك واضحًا من خلال مصنفهما في الحجاج، وفي ذلك تقول سامية الدّريدي: "فإنّ الكتاب المعنون بمصنف في الحجاج Traité de L'Argumentation Nouvelle Rhétorique لمؤلفيه **برلمان Perlaman وتيتيكا (Tytéca)** والّذي شكل ظهوره سنة 1958م فتحاً جديداً وأساسيًّا في عالم الخطابة الجديدة قد مثّل نظرة منطقيّة للحجاج إذا استأنف برلمان تحليل التّفاعل بين الباث والمتلقي في الخطاب المكتوب تحديداً وكان حريصًا عل الظهور بمظهر منطقي المتمكن من آليات التّفكير لا رجل بلاغة فحسب"[16].

إذن فهذه شهادة أخرى تضاف إلى رصيد الإشادة بهذا الكتاب، فقد أحدث ثورة كبيرة في حقل الدّراسات البلاغيّة المعاصرة، وذلك بتمثّله للنّظرة المنطقيّة للحجاج مركزًا باهتمام كبير جدًّا على أمور جادّة ولا تزال الجوهر الّذي يقوم عليه العمل الحجاجي، ألّا وهي العلاقة الّتي تجمع الباث بمتلقيه في ذلك العمل، فأحسن التّكيّف مع المنطق في التماسه لآليات التّفكير الّتي تبنّاها في معالجته لقضايا البلاغة (قضية الحجاج).

يعدّ كتاب مصنف في الحجاج لصاحبيه برلمان وتيتيكا، من خيرة ما أنجز من الأعمال في الحقل البلاغي المعاصر فلذا يَجْدُرُ بنا أن نعرض لمفهومه عندهما، فيورد عبد الله صولة تعريف المؤلفين للحجاج إذ يقول: "هو درس تقنيّات الخطاب الّتي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك

التّسليم"[17]، ثمّ يذكر المؤلفان في موضع آخر "غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب ... أو هو ما وُفّق على الأقل في جعل السّامعين مهيئين لذلك العمل في اللّحظة المناسبة"[18]، ذلك أنّ الحجاج يمتلك من التّقنيات والآليات ما يسهل على المتكلّم الوصول إلى ذهن الجمهور وعواطفه، فتؤدي بهذا الأخير إلى الخضوع والانقياد لما يطرح عليه من قضايا، وكلّما تقوى درجة الإذعان والتّسليم لدى الجمهور المتلقي، تقوى درجة نجاح الموضوع الحجاجي لدى المتكلّم، وذلك ما يعزّز موقفه وهدفه من كلّ ذلك.

IV- الآليات الحجاجية:

1- الأساليب البلاغية:

تعدّ الأساليب البلاغيّة من الآليات الحجاجيّة المراهن عليها لدفع الحجاج بخطى ثابتة نحو بناء جسر متين يعبرُهُ كلّ من المرسل والمتلقي على حدّ سواء بفضل شَركَتِهما لتحقيق العمليّة التّواصليّة، كما يسعى المرسلُ من جهته إلى توظيف هذه الآليات والأساليب بخصائصها وإمكانياتها الإقناعيّة الّتي تساعده على تقديم حججه في المظهر الّذي يتناسب والسّياق الّذي تَرِد فيه.

وما يثبت هذا النّوع من الأساليب يتّسم بصيغة حجاجيّة، يقول **صابر حبّاشة**: "والأساليب البلاغيّة يتمّ عزلها من سياقها البلاغي ليؤدي وظيفة لا جماليّة إنشائيّة، بل تؤدي وظيفة إقناعيّة استدلاليّة ... من هنا يتبيّن أن معظم الأساليب البلاغيّة تتّوفر على خاصيّة التّحول لأداء أغراض تواصليّة، ولإنجاز مقاصد حجاجيّة، ولإفادة أبعاد تداوليّة"[19]، ونركّز في ذلك على الاستعارة الحجاجيّة "ذلك لأن الاستعارة تدخل ضمن الوسائل اللّغوية الّتي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه، والاستعارة الحجاجيّة هي النّوع الأكثر انتشارًا لارتباطهما بمقاصد المتكّلمين وبسياقاتهم التّخاطبيّة والتّواصليّة"[20].

ونضرب في هذا الصّدد مثلاً الاستعارة في مقطع من خطبة **يزيد بن الوليد** لمّا قتل ابن عمه **الوليد بن يزيد**، فقام خطيبًا : "... أيّها النّاس إنّ لكم عليّ ألّا أضع حَجَرٍ، ولا لبنة على لبنة، ولا أَكْرِي نهرًا (١) ولا أكنز مالاً، ولا أعطيه زَوْجًا ولا وَلَدًا، ولا أنقل مالاً من بلدٍ إلى بلد حتى أَسُدَّ فقر ذلك البلد وخَصَاصَة أَهْلِه، بما يغنيهم فإن فَضَلَ فَضْل (٢) نقلته إلى البلد الّذي يليه ممّن هو أحوج إليه منه. ولا أجمّركم في ثغوركم (٣) فأَفْتِنكم وأفتنَ أهاليكم، ولا أغلق بابي دُونَكُم فيأكل قويكم ضعيفكم ...حتّى تستدير المعيشة بين المسلمين"[21].

نلاحظ المقطع كلّه يحفل بطاقة حجاجيّة هائلة، كون الخطيب يباشر في شرح خطتّه لإدارة سياسة الأمّة، والّتي تقوم حسبه على مبادئ إسلاميّة كما أدلى بها الشّرع، فهو لجأ سياسة التّبرير للموقف الّذي تبنّاه إزاء الفترة السّابقة من الحكم، إذا كانت سيئة وفاسدة للغاية، ممّا جعله في نظره يُجبر على اتخاذ قرار القتل.

وعليه نعود للطّابع الحجاجي الّذي ميّز الصّورة الاستعارية والمتمثلة (لا أغلق بابي دُونكم، فيأكل قويّكم ضعيفكم) حيث شبّه الإنسان القوي الجائر بالحيوان المفترس، الّذي يفترس كلّ كائن حي ضعيف لا حول له ولا قوّة، وعلى إثر ذلك وضع نفسه الخليفة العادل، الّذي يمنع حدوث مثل هذا الظّلم، وذلك بإيتاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهكذا حاول التّأثير على جمهوره ورعيّته.

2- الآليّات شبه المنطقية:

1- السّلم الحجاجي:

هو علاقة ترتيبيّة للحجج الّتي تخدم النّتيجة والّتي بدورها تحوي مجموع هذه الحجج،كما أنّه يتّسم بِسِمَات معيّنة، نذكر من بينها: أنّ كل قول يرد في درجة، أو يحتلّ منزلة ما من السّلم الحجاجي، يكون بالضّرورة القول الّذي يعلوه يمثّل دليلاً أقوى من الأقوال الّتي سبقته فيما يخصّ خدمة النتيجة "ن"، ثمّ أنّ جميع الأقوال الّتي تترتب في السّلم، لا بدّ أن تتّجه كلّها نحو خدمة النّتيجة المشار إليها.

ونمثّل للسّلم الحجاجي هنا بمقطع من خطبة **جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه**، لما ألقاه على ملك الحبشة (النّجاشي) عندما شكا قومه قريش إليه، وذلك ما تسبّبوا فيه من عذاب لهم قصد إعادتهم إلى جاهليتهم الأولى بعيدًا عن دين محمد صلى الله عليه وسلم، وينصّ هذا المقطع على قول الخطيب قائِلاً: "أيّها الملك كنّا قومًا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضّعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نَسَبَهُ وصِدْقَهُ، وأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ ..."[22].

نرى أنّ الخطيب ذكر النّتيجة مسبقًا كأنّه ذكر الكلّ ثم بدأ يُفصّل بعد ذلك بالحجج، وكان بطبيعة الحال مستاءً منها، أي طبيعة حالة الجاهليّة الّتي كان القوم موجودًا عليها من قبل حتّى أدركهم سيّد الخلق، أَنَارَ عقولهم وقلوبهم بنعمة الإسلام، إذن ولتبرير هذه النتيجة وظف حججاً تناسب السّياق الّذي وردت فيه، والّتي تتمثّل في عبادة الأصنام، أكل الميتة (الحرام)، الإتيان بالفواحش، قطع الأرحام، إساءة الجوار، ظلم القويّ للضّعيف، ثمّ يواصل استدراكه بنتيجة أخرى، وهي بعثة الرّسول صلى الله عليه وسلم والهدى الّذي أتى به

للنّاس أي الإرشاد إلى طريق الحقّ، شارحاً ومفسّرًا لذلك من أجل نيل إثارة النّجاشي ونَيْلِ استعطاف، ونمثل لذلك بالسّلم الحجاجي:

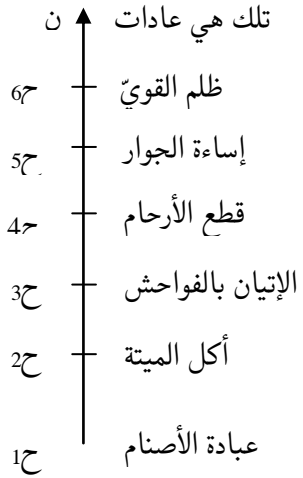

خاتمـــة

-حظي الحجاج بمكانة رفيعة في السّاحة النّقدية واللّغوية الغربية بصفة عامة، والعربيّة بصفة خاصة، وذلك بإيجاده أرضية خصبة ترعرت فيها البلاغة العربيّة منذ القدم، فأثمرت فحول فصول طويلة، وأزهر من خلالها النّثر (الخطابة)، والشّعر لعهود طويلة، ممّا سهّل على الدّرس الحجاجي العربي المعاصر، إعادة قراءة التّراث بآليّات جديدة تمكنّه في الآن نفسه من كشف لمعاني جديدة ظلّت مخبوءة في صدفات التّاريخ.

- مثلت الخطابة منبعًا صافيًّا اغترفت منه مباحث الحجاج عبر مراحلها الطّويلة، بينما نجد بالمقابل تسرّبت مباحثه أيضًا إلى بيئة عريقة مجالها رحب، سيطر الخيال عليها منذ الأزل في خَلْقِهَا (الشّعر)، فظلّ هذا الأخير يعيش صراعًا بين مناصرٍ له، ورَافِضٍ له من جهة أخرى لعالم المنطق والجدل والبرهنة، كون الذّوق والعذوبة تتغلغل في دهاليز الخيال.

- سيطر على البحث التّداولي لاستعمال الهادف للّغة، فظلّت من خلاله العمليّة التّواصليّة هي الجوهر الأساسي الّذي تقوم عليه، وباءت العلاقة بين المرسل والمتلقي تسير نحو أفاقٍ بعيدة محقّقة بذلك فعاليّة وحركيّة في المجتمع ما يعكس سلوكاته وردود أفعاله.

- يعتمد الحجاج على خصوصيّة جوهريّة تتمثّل في الاستمالة، التّأثير والإقناع، كما اعْتَنَى التّداول بكل عناصر التّواصل، وركَزَ هو الآخر على بحث التّفاعل بين أطراف الخطاب

المختلفة من متكلّم، ومستمع، وسياق، ومقام، ولا تنفصل هذه الأطراف عن بعضها البعض، بل تؤدي وظيفة تكامليّة في إنتاج الخطاب من جهة، وفهمه من جهة أخرى.

- يركز البحث التّداولي أثناء أداء وظيفته على مباحث الحجاج، حيث أعتبر هذا الأخير ضمن آلياته الفعّالة في تحقيق التّواصل، والحرص على مراعاة ما يضمن سلامة العلاقة بين أطراف الخطاب، كون كل استعمال وتداول يحتاج إلى حجاج، وكلّ العناصر الّتي يعتمد عليها الحجاج يعتمد عليها التّداول أيضًا.

- الهوامش:

[1] أمينة الدّهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، المدارس شركة النّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، ط1، 2011م، ص:7.

[2] عبد الهادي بن ظافر الشّهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتحدّة، ليبيا، ط1، 2004م، ص:16.

[3] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّص، عالم المعرفة، الكويت، (د،ط)، 1992م، ص17.

[4] فرانسوا أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنهاء القومي، المغرب، (د، ط)، (د، ت)، ص:4.

[5] المرجع نفسه، ص:4.

[6] عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص:23 ص: 24.

[7] باديس لهويمل: التّداوليّة والبلاغة العربيّة، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد السّابع، 2011م، ص:159.

[8] المرجع نفسه، ص162.

[9] محمود صحراوي: التّداوليّة عند علماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّاني والعربي، دار الطّليعة للطباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2005م، ص:10.

[10] خليفة بوجادي: في اللّسانيات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربي القديم، بيت الحكمة للنّشر والتّوزيع، ط1، 2009م، ص:97.

[11] المرجع نفسه: ص:99.

[12] محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، (د، ط)، 2002م، ص: 34.

[13] جواد ختام: التّداولية أصولها واتجهاتها،كنوز المعرفة، عمّان، ط1، 2001م، ص:76.

[14] المرجع نفسه: ص: 78.

[15] أمينة الدّهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص:8.

[16] سامية الدريدي: الحجاج في الشّعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2011م، ص:21.

[17] عبد الله صولة: ـفي نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص:13.

[18] المرجع نفسه: ص13.

[19] صابر حبّاشة: التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدّراسات والنّشر، سورية، الإصدار الأوّل، 2008م، ص: 50.

[20] أبو بكر العزّاوي: اللّغة والحجاج، منتديات سور الأزبكيّة، الدّار البيضاء، ط1، 2006م، ص: 108.

[21] الجاحظ: البيان والتّبين، تح عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ج2، ص: 141.

[22] ابن هشام: السّيرة النّبويّة، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشّلبي، النّاشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1955من ج1، ص:336.